النظام السوري والميليشيات المحلية

خضر خضّور

تساهم مأسسة النظام السوري للميليشيات المحلية في تعزيز ولائها للدولة، وتتيح للنظام إحكام قبضته على المجتمعات التي تنبثق منها هذه الميليشيات.

03 حزيران/يونيو 2014 English تعليقات القراء (+)

ظهرت مجموعات مسلّحة تحارب إلى جانب النظام السوري، ونمت وتوسّعت في الحجم والتأثير خلال الأعوام الثلاثة الماضية. من شأن هذه المجموعات أن تشكّل خطراً حقيقياً على النظام في حال خروجها عن سيطرته. فإذا اكتسبت قاعدة واسعة من الأتباع على الأرض وبنت روابط متينة مع المجتمع، منحها ذلك القدرة على التفاوض مع النظام على السيطرة والنفوذ، والعمل مع الأقوياء الدوليين تحقيقاً لمصالحها الخاصة التي تتعارض على الأرجح مع مصالح النظام. ولذلك، وضع النظام في رأس أولوياته، خلال العام الماضي، احتواء هذه المجموعات عبر مأسستها وضمان ولائها، باعتبار مكوّناً أساسياً في استراتيجية ناجحة تؤمن بقاءه.

الأكبر بين هذه المجموعات هو قوات الدفاع الوطني التي أُسّست كقوّة مدنية في حمص، في أواخر العام 2012، للقتال إلى جانب الجيش والقوى الأمنية السورية؛ وقد انتشرت هيكليتها لاحقاً في مختلف أنحاء سورية، لكن قبل ذلك، لم تكن قوات الدفاع الوطني تؤدي دوراً أمنياً. بل إن قواتها كانت في البداية بمثابة لجان شعبية غير نظامية تتمركز في القرى والأحياء، وتهدف إلى حماية مناطقها، وكان هذا مهماً على وجه التحديد في الأيام الأولى للانتفاضة؛ فعبر استقطاب الشباب في منطقة معيّنة، كانت اللجان تصنّف أحياء محدّدة بأنها موالية للنظام، وتُميّز هذا بذلك عن الأحياء حيث كان الشباب يشاركون في الاحتجاجات ولم يكونوا مؤيّدين للنظام.

مع تصاعد العنف في منتصف العام 2012، أصبحت اللجان المحلية أكثر انخراطاً في القتال. وبدأ نموّها على الأرض يشكّل خطراً محتملاً على النظام السوري، الذي باشر العمل على مأسستها بهدف ضمان التزامها وولائها بصورة مستمرّة. وقد انتشرت الهيئات التابعة لقوات الدفاع الوطني في أوساط عدد كبير من الشرائح المختلفة في المجتمع السوري، وذلك خلافاً للاعتقاد السائد خارج سورية بأن قوات الدفاع الوطني وسواها من الميليشيات تتألف في شكل كامل أو بمعظمها من العلويين، وفق الحال هو أنّ هذه الهيئات، باعتبار ما محلية الطابع منذ في المنشأ، استمّدت أعضاءها من المذهب نفسه أو القبيلة نفسها أو الحي نفسه حيث تتمركز. فقد تألّفت هذه اللجان مثلاً من غالبية ساحقة من الدروز في السويداء وجرمانا، ومن العلويين في حمص والتلاكلخ، ومن المسيحيين في وادي النصارى، ومن السنّة (ولاسيما القبائل العربية) في حلب وجوارها. كما أنها باتت تعكس المجتمع المحلي كونها تعتمد على المدنيين والجنود المتقاعدين لا على العسكريين في الخدمة الفعلية. فعلى سبيل المثال، كان قائد قوات الدفاع الوطني في حمص مهندساً مدنياً لا جندياً منخرطاً في السلك العسكري قبل اندلاع الانتفاضة.

أحدث إنشاء قوات الدفاع الوطني تبدّلاً في مسار هذه المجموعات القتالية التي تكتّلت وتحوّلت إلى فرق نظامية مدعومة من الدولة وخاضعة إلى سيطرتها. بدأت هذه العملية في أواخر العام 2012، وتواصلت بصورة تدريجية على امتداد أشهر عدّة. وقد منحت الحكومة المجموعات القتالية شيئاً فشيئاً الدعم المادّي والاعتراف، بحيث تحوّلت، بحلول ربيع 2013، إلى مؤسّسة نظامية. وهكذا أصبحت لقوات الدفاع الوطني ميلان إدارية تشغلها قياداتها، ومراكز تدريب، وختم رسمي، وبزّات موحّدة، وشعار وعلم، ورواتب شهرية. كما أنها تحصل على الأسلحة والرواتب والتوجيهات من دمشق. ويتجلّى نجاح استراتيجية المأسسة في الأحداث التي تلت مقتل هلال الأسد، قائد قوات الدفاع الوطني في اللاذقية، في 23 آذار/مارس الماضي. فبدلاً من الانزلاق نحو فتنة داخلية لدى وفاته - كما يحصل عادةً بين أتباع أمراء الحرب - حافظت قوات الدفاع الوطني في اللاذقية على إطارها المؤسسي القائم.

ظهرت أيضاً مجموعات وجمعيات محلية أخرى غير عسكرية لدعم القوات القتالية، الأمر الذي ساهم أكثر فأكثر في سحب المدنيين نحو مؤسسات الدولة. وخير مثال على ذلك مؤسسة الشهيد السوري التي أُسّست في منتصف العام 2013. ومع أن المؤسسة ليست متخصّصة حصراً إلى قدامى قوات الدفاع الوطني، إلا أنها تؤدي دوراً مهماً في تأمين الخدمات لهم. تبنّى المؤسسة مستشفيات، وتتولّى ترتيب مراسم التشييع والدفن، وتنظّم أنشطة ترفيهية للأولاد في المدارس، وتقدّم الدعم المادّي لأسر الأعضاء في قوات الدفاع الوطني. وقد ظهرت أيضاً جمعيات عدّة تقدّم خدمات مماثلة، وجميعها تتألّف من أعضاء من المجتمع المحلي، شأنها في ذلك شأن قوات الدفاع الوطني. ومثلها تماماً، حصلت على تراخيص رسمية من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، حتى إنها تملك حسابات مصرفية في المصرف التجاري السوري لقبول التبرّعات من أعضاء المجتمع.

يأتي أعضاء مؤسسة الشهيد السوري وقوات الدفاع الوطني من خلفيات متشابهة؛ فهم مدنيون ولبسوا عسكريين، وينتمون إلى المجتمع المحلي نفسه. يجمع رابطٌ قوي بين أعضاء المؤسسة وقوات الدفاع الوطني نظراً إلى أن المقاتلين يتحدّرون من المنطقة نفسها التي ينتمي إليها أعضاء المؤسسة المحليون، وغالباً مايثبعون أيضاً المذهب عينه. وفي معظم الأحيان، تنخرط العائلة نفسها أيضاً في النشاطين معاً، أي أنها ترسل مقاتلين إلى قوات الدفاع الوطني وتدعم المؤسسة أو تحصل على الدعم منها، يولّد وجود مؤسسة الشهيد السوري شعوراً عاماً لدى هؤلاء المقاتلين بالأمان داخل المجتمع. فهم يطمئنون إلى أنهم محميّون، وإلى وجود فريق مدني آخر سيتولّى دعمهم ودعم أسرهم في حال التعرّض للإصابة أو الوفاة. وهكذا، فإن المنظمات التي رأت النور لدعم المقاتلين وعائلاتهم تساهم، عبر الحصول على التراخيص الرسمي، في وضع القوات القتالية غير النظامية تحت مظلة الدولة السورية، مايؤشّر إلى ارتباط الميليشيات التي تعمل حالياً لحساب الدولة ارتباطاً عميقاً بالنظام السوري.

تعكس مأسسة المجموعات التي مارست العنف في مطلع الثورة وإخضاعها ضمن إطار الدولة، استراتيجية فعّالة يتبنّاها النظام السوري في مواجهة الحرب الدائرة في البلاد، الأمر الذي أتاح له ممارسة نفوذ واسع على هؤلاء المقاتلين. فمصير هم مرتبط الآن بمصير النظام، وبالتالي فإن المجتمعات المحلية التي انبثقت منها هذه المجموعات مرتبطة أيضاً بالنظام. لهذا السبب، من المستبعد أن نشهد على انتفاضة بشّنها قادة هذه المجموعات على النظام السوري، أقلّه في المستقبل المنظور.

خضر خضور باحث رائد في مركز كارنيغي للشرق الأوسط - بيروت.

* تُرجم هذا المقال من اللغة الإنكليزية

المزيد عن: المشرق العربي سوريا سوريا في أزمة

تعليقات القراء

أضف تعليقاتك. أضف تعليقك. الحد الأقصى 2500 حرف. الروابط وأية الترميز ممنوعة والتعليقات ستكون قيد التدقيق وقد لا تظهر على الشاشة فوراً. وتظهر اسم المستخدم مع تعليقك
الإسم
تابع النقاش—سجّل لتتلقى تحديثات البريد الالكتروني حين تنشر التعليقات على هذا المقال. الحقول المشار إليها بعلامة النجمة (*) مطلوبة
البريد الالكتروني
عدد الأحرف التي تم استعمالها 0
أضف تعليقك
سياسة التعليقات

أحدث المطبوعات من صدى
منطق التقارب بين الهند والخليج العربي
28 آب/أغسطس 2019
مشاريع السيسي الكبرى العقيمة
06 آذار/مارس 2019
حفتر والانقلابات المقنّعة
30 تشرين الثاني/نوفمبر 2019
الصراع الكردي-العربي على النفوذ في شمال شرق سورية
26 تشرين الثاني/نوفمبر 2019
الاتحاد الأوروبي والمغرب وأسطورة الاستقرار
16 تشرين الثاني/نوفمبر 2019

CARNEGIE ENDOWMENT FOR INTERNATIONAL PEACE
1779 Massachusetts Avenue NW
Washington, DC 20036-2103
Phone: 202 483 7600
Fax: 202 483 1840
Contact By Email

© 2019 All Rights Reserved